مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 20، العدد 80-81 (خريف / شتاء 2009)، ص 237

أنيس فوزي قاسم*
أنيس صايغ: بوصلة متجهة إلى القدس أبداً**

كنت أعدّ رسالة الماجستير في القانون الدولي في جامعة جورج واشنطن في سنة 1970، وكان موضوعها "قانون العودة وقانون الجنسية الإسرائيليان"، وكنت، شأني شأن العديد من الطلاب العرب في الولايات المتحدة الأميركية، أستعين بالمرحوم الدكتور فايز صايغ الذي أبدى اهتماماً خاصاً بموضوعي لأنه كان يشكو من نقص الدراسات القانونية العربية عن القضية الفلسطينية. وقد أعارني ملفاً كان يجمع فيه مقالات وتقارير صحافية عن قانون العودة، لكن بشرط أن تتم ترجمة الأطروحة إلى العربية تمهيداً لنشرها في سلسلة "دراسات فلسطينية" التي كان يصدرها مركز الأبحاث الفلسطيني الذي كان يرئسه آنذاك أنيس صايغ. وحين انتهيت من ترجمة الأطروحة إلى العربية أرسلها الدكتور فايز إلى بيروت مع رسالة يشدد فيها على أخيه أنيس أن اسم المؤلف يجب أن يكون ثلاثياً وعلى النحو التالي: أنيس فوزي قاسم، وليس "القاسم"، لئلا يختلط اسمي باسم أستاذنا الكبير الدكتور أنيس القاسم الذي كان مع فايز صايغ من واضعي ميثاق منظمة التحرير الفلسطينية. وصدر الكتاب، لكن باسم المؤلف التالي: "أنيس فايز القاسم". ثم انتبه الدكتور أنيس إلى الخطأين اللذين وقع فيهما المخرج، وسحب الكتاب فوراً وعدّل الاسم وأرسل إليّ رسالة اعتذار بلهجة من ارتكب إحدى الكبائر يطلب فيها العفو والمغفرة، وأنه وحده يتحمل مسؤولية الخطأ. وبدأت علاقة شخصية منذ ذلك الحين، وتعلمت منه التقيّد الشديد بتواضع العالم، واحترامه المخلص للدراسة التي فيها خدمة قضية فلسطين، كأنه كان الراعي والحارس الوحيد على حراسة هذه القضية من المسّ والتشويه.

ليس سهلاً الكتابة عن شخصية ثقافية وأكاديمية بارزة مثل أنيس صايغ، فقد ترأس إصدار أربع دوريات رائدة في المسرح الثقافي العربي، وتولى إصدار الموسوعة الفلسطينية، وكتب العديد من المؤلفات والمقالات والمساهمات الثقافية البارزة، وله الفضل الأكبر في تطوير مركز الأبحاث الفلسطيني والوصول به إلى مستوى كلية جامعية متخصصة في الشأن الفلسطيني. لقد منح مركز الأبحاث خبراته الأكاديمية كلها، ووضع له حدوداً علمية لا يحيد عنها، ووصل به إلى ذرى شامخة في خلق ذاكرة فلسطينية، وصار مصدراً أساسياً للسياسات الفلسطينية، الأمر الذي جعله هدفاً مستمراً للإسرائيليين، وعدواً خطراً لهم، إلى أن اصطادوه برسالة مفخخة في

* محام مقيم بعمّان.
** توفي في عمان في 2009/12/25.

1972/7/19، أفقدته ثلاثة أصابع من يده اليسرى ومعظم قواه البصرية، وأصمّ الانفجار إحدى أذنيه، وظل يعاني طيلة حياته جرّاء الطنين. ومع ذلك، لم يتوقف عن العطاء والكتابة، والفضل في هذا الشحن المتواصل يعود إلى زوجته الباحثة المناضلة هيلدا شعبان.

وعلى الرغم من أنني كنت حريصاً على متابعة ما يكتبه أنيس صايغ، ولا سيما افتتاحياته في "شؤون فلسطينية"، وكنت أحرص على زيارته في منزله في بيروت، أو لقائه في عمّان حين يأتي إليها زائراً أنسباءه، إلاّ إني شعرت بالقرب الشديد منه فكرياً وسياسياً حين بدأت أقرأ مقالاته ومقابلاته بشأن اتفاق أوسلو ومسار أوسلو. وقد ألقيت محاضرة عن إعلان المبادئ بعد مرور ستة أسابيع من توقيعه بعنوان "النفق في نهاية الضوء"، وذلك رداً على مقولة ياسر عرفات التي كان يرددها كثيراً، وهي أنه يرى ضوءاً في نهاية النفق، إذ إنني كنت على يقين بأن الشعب الفلسطيني سيدخل مع إعلان المبادئ نفقاً مظلماً، وسيحار في كيفية الخروج منه، كما أنني ما زلت أعتبر اتفاق أوسلو أشدّ خطراً من إعلان بلفور، ومن صك الانتداب، ومن قرار التقسيم. وظللت أتابع ما يكتبه أنيس صايغ، ودائماً ما كنت أجد نفسي أنهل من رؤاه البعيدة ومن ردوده على المدافعين عن اتفاق أوسلو، وهنا، لا بد من اقتباس نبوءته التي قالها في مقابلة مع جريدة "السفير" أجراها معه صقر أبو فخر بعد ثلاثة أيام من توقيع إعلان المبادئ، فقد قال أنيس صايغ:

وختاماً للحديث عن سيئات هذا الاتفاق ندعو إلى رفضه، نبسط نظرتنا بهاتين العبارتين: إن موازنة موضوعية بين وعود الاتفاق وشروره تثبت أن شروره أكبر بكثير من أية وعود يحملها (وهي، في أي حال، وعود مبهمة ومرحلية ومتناقضة وبعضها يحمل السم في طيات كلماته). وإن مقارنة بين ما هو حاصل في فلسطين قبل توقيع الاتفاق وبين ما نستطيع أن نجزم أنه سيحصل بفعل الاتفاق والصلح والاعتراف والتعايش والتعاون إلخ... تثبت أن غالبية الشعب الفلسطيني سيتراوح وضعها بين أن تظل على ما هي عليه وبين أن يزداد الوضع سوءاً، أمّا تلك الأقلية التي تقيم تحت "سلطة" الإدارة الفلسطينية فنرجو ألاّ يأتي الوقت الذي سوف تترحم فيه على أيام الاحتلال العسكري "الإسرائيلي" المباشر.

وها قد وصل الفلسطينيون تحت سلطة الحكم الذاتي، المسماة السلطة الوطنية الفلسطينية، إلى المرحلة التي تنبأ بها أنيس صايغ، إذ إن انهيار القيم وانتشار الفساد والمحسوبية في الوسط الفلسطيني أصبحت عناصر ضرورية لتنفيذ اتفاق أوسلو، بل شرطاً من شروطها. وتحققت مقولة أنيس صايغ بأن أوضاع الشعب الفلسطيني تزداد سوءاً منذ دخول نفق أوسلو، ويكفي النظر إلى الانقسام الواقع بين قسمي الوطن المحتل

في الضفة الغربية وقطاع غزة، كي ندرك أن هذا الانقسام ما هو إلاّ أحد العوارض الجانبية لمصيبة أوسلو.

وكان أنيس صايغ يملك رداً قاسياً ومفحماً على دعاة المرحلية الذين كانوا ينادون بقبول الحلول على مراحل، وقد قال في المقابلة نفسها: "المرء لا يقف ضد المرحلية بحد ذاتها، والتدرج في نيل الأماني أمر محتم في معظم الحالات والظروف. لكن شرط المرحلية لتكون سياسة ناجحة ومقبولة أن تتدرج بصاحبها من موقع راهن إلى موقع أكثر تقدماً، من مكسب جزئي يتلوه مكسب جزئي آخر... اعتراضنا على دعاة المرحلية السائدة حالياً هو أن الاتفاق الذي يتباهون بتوقيعه [اتفاق أوسلو] إنما هو خطوة إلى الخلف وليس إلى الأمام، وأن نتائجه القريبة والبعيدة هي تراكم في التنازلات والتراجعات والخسائر." وهكذا جاءت النتائج بانتكاسة شديدة لكل النضال الفلسطيني، والفلسطينيون يعيشون حالياً في ظل ردّة غاية في القتامة والانهيار.

لا جدال في أن التصاق أنيس صايغ بالقضية الفلسطينية جعل منه مثقفاً "صوفياً" في محراب هذه القضية. فقد كان في داخله بوصلة تضبط فكره وتخطيطه ونظرته وتحليلاته في كل ما يتعلق بفلسطين، وظل ثابتاً على التوجه نحو قِبلته لا يحيد عنها، وكانت صلاته، إن لم تكن في اتجاه القدس، فهي بلا أجر أو ثواب، أو على نحو ما قال الشاعر مظفر النواب: "بوصلة لا تشير إلى القدس مشبوهة." كان مناضلاً صلباً ومثقفاً ملتزماً قضية شعبه، وكان مدركاً كنه الصهيونية كعقيدة وسياسة، ولذلك لم يتلوّن ولم يتغير ولم يبرر ولم يعذر. كتب في افتتاحية "شؤون فلسطينية"، وهي إحدى منجزاته الثمينة، وكانت تدخل عامها الثالث (مارس/آذار 1973)، أي بعد انفجار الرسالة المفخخة بين يديه، قائلاً: "ودور شؤون فلسطينية.. هو دور المقاتل الفلسطيني الثابت في الساحة.. وتعاهد الشعب الفلسطيني.. بأن تكون.. سلاحاً ماضياً في يد الثورة ضد الصهيونية وضد الاستعمار وضد الرجعية، سلاحاً ينزل بالعدو من الضربات ويوقع به من الخسائر ما لم يعهده العدوان من قبل من مجلة لا تزال في مطلع حياتها." وبعد ربع قرن من تلك الافتتاحية، كتب مؤلفه المهم "الوصايا العشر للحركة الصهيونية" يحذرنا فيه من إغماض الأعين عن المبادئ الأساسية لهذه الحركة العنصرية التي تحاول أن تتخفى وراء أطروحات ومقولات فنتوهم أن الصهيونية تبدلت أو تغيرت فنبادر إلى التنازل عن ثوابتنا. ولا شك في أن هذا ما جرى فعلاً في مسار أوسلو حين اعتقد بعض أجنحة القيادة الفلسطينية أن الصهيونية تغيرت كما تغيرت الرأسمالية أو الماركسية. وفي سنة 2006، حين أصدر مذكراته المدهشة "أنيس صايغ عن أنيس صايغ"، وهي مذكرات في غاية الأهمية والأناقة والصدق، ظل ثابتاً على مواقفه، وقال في ردّه على إميل حبيبي، شيخ الروائيين الفلسطينيين، الذي قال في أنيس صايغ إنه "المثل الأعلى للمفكرين بلا فكر!" وذلك

لأنه ما زال يكتب كلمة "إسرائيل" ضمن مزدوجين، قال أنيس صايغ: "إن بصري مهما ضعف يظل يرى (إسرائيل). يراها في وحشيتها وجرائمها وألاعيبها وأكاذيبها ومؤامراتها. العينان المنطفئتان تريان (إسرائيل) أفضل مما تراها العيون السليمة المعافاة. ولأني أرى (إسرائيل) هكذا أعتبر وجودها حالة غير طبيعية وغير أصيلة وغير صحيحة. القوسان ليسا عجزاً عن رؤيتها بل هما رفض قاطع لوجودها." (ص 504).

وبعد هذا الثبات الذي لا يتزحزح في مسيرته، هل من يتساءل عن سبب الخلاف الشديد الذي احتدم، وما زال محتدماً، بينه وبين من جعل، ويجعل، من التنازلات سياسة ثابتة؟

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf